

كيفية تكوين ضمير أرثوذكسي

الأب ألكسي يونغ

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

يتكوّن الضمير المسيحي الأرثوذكسي بفضل نعمة ربنا يسوع المسيح العاملة فينا، لهذا من الصعب تكوين هذا الضمير. ولكن بمجرد أن يقتنيه المسيحي، يدق ناقوس الخطر في قلبه وعقله كلما اقترب من الأفعال غير اللائقة، النقص في الإحسان تجاه الآخرين، الأفكار الخاطئة، والانحرافات عن تقاليد الأرثوذكسية المقدسة.

ما يلي هو الطرق التي يمكننا من خلالها التعاون مع نعمة الله لتكوين هذا الضمير في داخلنا:

١. علينا أن نقتني الكثير من المحبة لمخلصنا، بكل قلوبنا وعقولنا وأرواحنا وقوتنا، لا أن نقسم محبتنا بين الله والعالم. بالنسبة للمبتدئين، هذا يعني أنه عندما نصلي يجب أن نكافح بشدة للتركيز وتجنب ما يشغتنا: يجب أن نكون كلياً في الله. إلى ذلك، كما يعلم القديس يوحنا كرونشتادت: "تبدأ محبة الله في الظهور والعمل فينا، عندما نبدأ بمحبة قريبتنا كنفسنا، ولا نوفر أنفسنا أو أي شيء يخصنا من أجله، كما هي صورة الله: لأن من لا يحب أخاه الذي رآه فكيف يقدر أن يحب الله الذي لم يره؟ (يوحنا الأولى ٤:٢٠)".

٢. علينا أن نصلي كثيراً، سواء في الكنيسة أو في المنزل. يقول القديس غريغوريوس السينائي أننا "ندفن الهبة العظيمة التي أعطانا إياها الله في المعمودية المقدسة، تماماً كما يُدفن كنز في الأرض، فيما الحس السليم والامتنان يتطلبان أن نهتم بكشف هذا الكنز وتخليط الضوء عليه." إحدى أهم الطرق للقيام بذلك هي اكتساب عادة الصلاة. يضيف البارثولوميو الحبيس في الشرح: "إن الذين يسمعون فقط عن التأمل الروحي والصلاة دون أن يعرفوها مباشرة [أي يختبرونها] هم مثل المكفوفين منذ ولادتهم، الذين يسمعون عن أشعة الشمس دون أن يعرفوا ما هي حقاً. من خلال هذا الجهل يفقدون الكثير من البركات الروحية، ويبطئون في الوصول إلى الفضائل التي تؤدي إلى إرضاء الله".

٣. يجب أن نقرأ الكتاب المقدس وندرسه بعناية. العديد من القديسين اعتادوا قراءة سفر المزامير والعهد الجديد بالكامل كل أسبوع، ونحن ينبغي بنا، على الأقل، قراءة الإنجيل والرسالة المُحددة في تقويم الكنيسة لكل يوم. يرى القديس سيرافيم ساروفسكي أنه "من المفيد جداً" الانشغال بقراءة كلمة الله في عزلة، وقراءة الكتاب المقدس بأكمله ببطء... حتى ينغم عقل القارئ كله في حقائق الكتاب المقدس ولكي ينال الدفء من هذا."

٤. الاشتراك في الخدم الإلهية والمناولة المقدسة المتكررة هما أمر حيوي لتنمية الضمير الأرثوذكسي. عن هذا يكتب القديس يوحنا كرونشتادت: "إن الليتورجيا الإلهية هي حقًا خدمة سماوية على الأرض، حيث يوجد الله نفسه، بطريقة خاصة وفورية وقريبة، ويسكن مع البشر... لا شيء على الأرض أسمى وأعظم وأقدس من الليتورجيا؛ ولا شيء أكثر جدية، ولا شيء أكثر منجًا للحياة". لاحظ القديس تيخن الزادونسكي: "كثيرًا ما كان المسيحيون القدامى يتلقون المناولة كسببٍ وغذاءٍ للخلود، لذلك حتى إلى هذه الأيام، تحثنا الكنيسة المقدسة يوميًا على 'التقدم بخوف الله وإيمان'".

٥. علينا أن نقرأ كتابات آباء الكنيسة القديسين وسير القديسين. إذا أردنا أن نتعلم طرقًا ترضي الله، فمن المنطقي أن نخصص وقتًا لدراسة كتابات وحياة أولئك الذين اقتربوا منه بينما كانوا لا يزالون في هذه الحياة، إذ بحسب القديس يوحنا كرونشتادت هناك أغنياء وفقراء في العالم الروحي كما هو الحال في المجتمع الدنيوي: "كما يطلب الفقراء صدقةً الأغنياء، ولا يستطيعون العيش بدون مساعدة منهم، هكذا أيضًا في الترتيب الروحي يجب أن يلجأ الفقراء إلى الأغنياء. نحن فقراء روحياً، بينما القديسون، والذين يتألقون حتى في هذه الحياة الحاضرة بإيمانهم وتقواهم، هم أغنياء روحياً. وعلينا نحن المحتاجين أن نلجأ إليهم".

٦. علينا أن نمارس حضور الله في حياتنا اليومية. يشرح القديس يوحنا كرونشتادت الأمر بهذه الطريقة: "أمن أن الله يراك من دون أي شك تماماً كإيمانك بأن من يقف أمامك يراك، فقط مع اختلاف هو أن الآب السماوي يرى كل ما فيك، كل ما أنت عليه... الله أقرب إلينا من أي إنسان في أي وقت. لذلك يجب أن نضع الله أمامنا دائماً، عن يميننا، وهناك نراه؛ يجب أن نكون أقوياء، ولكي لا نخطأ يجب أن نضع أنفسنا في مكان بحيث لا يمكن لأي شيء أن يطرد الله من أفكارنا وقلوبنا، ولا شيء يمكن أن يخفيه عنا، ولا شيء يحرمنا من ربنا الحبيب، ولكن أن ننتمي إليه كل ساعة وكل دقيقة، وأن نكون على الدوام معه، لأنه هو معنا على الدوام وهو يهتم بنا دائماً ويحرسنا".

٧. في كثير من الأحيان، إن لم يكن كل يوم، علينا أن نفحص أرواحنا ونتوب عن الذنوب التي نجدها هناك. يكتب القديس مرقس الناسك: "الضمير كتاب الطبيعة. من يطبق ما يقرؤه هناك يختبر معونة الله". وهكذا كتب الشيخ مكاريوس أوبتينا في رسالة توجيهه روحي: "الرب يدعو إليه جميع الخطاة، يفتح ذراعيه على اتساعهما، حتى لأسوأهم. وبكل سرور يأخذهم بين ذراعيه لمجرد أن يأتوا. لكن عليهم أن يبذلوا جهدًا في المجيء، عليهم أن يسعوا إليه، أن يذهبوا إليه. بمعنى آخر، يجب أن يتوبوا، ليس هو من يرفض الذين لا يتوبون، فهو دائماً مشتاق إليهم ويدعوهم. لكن هم يرفضون سماع دعوته، ويختارون الابتعاد في اتجاه آخر". لذلك، يشرح القديس يوحنا كرونشتادت: "إن الضمير عند البشر ليس سوى صوت الله الكلي الوجود الذي يتحرك في القلب. الرب يعلم كل شيء... راقب قلبك

طوال حياتك؛ افحصه، استمع إليه، وانظر ما يمنعه من الاتحاد بالرب. لتكن هذه دراستك العليا والدائمة... افحص نفسك كثيرًا؛ انظر أين تتجه عيون قلبك." وبعد ذلك، كما ينصح البار ثيوفان الناسك: "توبوا، وارجعوا إلى الرب، اعترفوا بخطاياكم، وابكوا عليها بحزن شديد، واعترفوا بها أمام أبيكم الروحي". يخبرنا القديس إيسيخيوس الكاهن أنه بحسب القديس باسيليوس الكبير: "ما يساعدنا كثيراً على عدم الإثم وعدم ارتكاب نفس الأخطاء يوميًا هو أن نراجع في ضميرنا في نهاية كل يوم ما ارتكبناه من خطأ وما فعلناه بشكل صحيح. لقد فعل أيوب عن نفسه ومن أجل أطفاله [راجع أيوب ١: ٥]، هذه الحسابات اليومية تنير سلوك الإنسان ساعةً بساعة".

٨. ينبغي أن نجاهد بقوة لتجنب إدانة الآخرين. لله وحده الحق في أن يحكم، كما يقول القديس تيوخون الزادونسكي: "لا تحكم على الآخرين، لأنك لا تستطيع أن تعرف ما بداخل الآخر. لا تدن، فالآخر قد يظل قائماً بينما أنت تسقط. احذر حتى من الحديث عن الآخرين، لئلا تبدأ في الحكم عليهم. إن التساؤل عن خطيئة الآخرين هو فضول مكروه عند الله والإنسان... لأنه، من خلال الإدانة، يفتصب الإنسان سلطات القاضي الوحيد، أي المسيح... وفوق كل شيء، قد ندين شخصاً آخرًا ولكننا لا نعرف ما إذا كان قد تاب بالفعل وحصل على المغفرة من الله".

إذا كنا على استعداد لترتيب حياتنا بالطريقة المذكورة أعلاه، وعزمنا على عدم الانسحاب من هذا العمل المقدس حتى لو كان ذلك يعني المعاناة والموت أيضًا، فمن اللحظة التي نبدأ فيها، تبدأ النعمة في التدفق إلينا، فبحسب البار ثيوفانس الحبيس: "معونة الله جاهزة دائمًا وقريبة دائمًا، ولكنها تُمنح فقط لمن يسعى ويعمل".

Source: Father Alexey Young, How to Form an Orthodox Conscience.

<https://www.holycrossyakima.org/orthodoxPdfs/FORMING%20AN%20ORTHODOX%20CONSCIENCE%20Fr.%20Alexi%20Young.pdf>